

فكاهات

رقائبة

الاختين^(١)

لا يجهل القراء ما كانت عليه الاسكندرية في نهاية شهر اوجسطس من سنة ١٨٨٣ من وقوف الاعمال واشتغال الافكار بحركة الدوارع الانكليزية من الخارج والجنود المصرية من الداخل وما كان ثمة من المذابح والمخاوف مما كاد يجعل تلك المدينة قاعاً صافصفاً . ومما زاد في وحشة المدينة مهاجرة الكثيرين من سكانها اذ كانوا يتدافعون الى البحر تباعاً هرباً من تيار ذلك البلاء الى ان يقضي الله امراً كان مفعولاً

الا ان كثيرين لم يتسن لهم الرحيل بسبب قلة ذات اليد او الانهماك في احوال خاصة ولا سيما ارباب العيال ممن لا يتيسر سفرهم الا بعد استعداد طويل . وكان في شارع العطارين مكن يقطنه رجل يدعى بطرس . . . وزوجته وطفلان له وكان بطرس مناهزاً للخمسين من عمره وهو رجل وقور الهيئة حسن الطلعة كريم الحصال كامل الصفات لم يستول على قلبه سلطان الهوى الا قبيل ذلك العمر فاقترن بفتاة تنسب اليه ورزقه الله منها ابنتين توأمين قبل الحادثة العرابية بقليل من الزمن . فلما اخذ القوم في

(١) معربة عن الانكليزية بقلم نسيب افندي المشعلاني

الرحيل حالت دون سفره اقوى الميڤطات واهمها بقاء زوجته على فراش
نفاسها والطفلتان فلم يدر كيف يمكنه نقل الثلاث ولا سيما زوجته وهي في
مثل تلك الحالة ولما لم يجد بداً من البقاء سلم امره الى الله واقام يتوقع ما
يجي به القدر . ولما اشتدت الفتنة وتفاقم الهياج في المدينة اخذت
الكرات تتطاير فيسمع لها دوي عظيم يتبعه اعظم منه من سقوط الابنية
ودك القلاع فوقع على زوجة بطرس رعب عظيم وخافت على زوجها وطفلتها
واخذت تتسخط على نفسها لانها كانت هي السبب في تخلف زوجها عن
السفر والتخلص من شر تلك النكبات فآثر ذلك في صحتها ولا سيما مع تواتر
الرب وارتفاع الصيحة في البلد ووجدت الحمى محلاً ضعيفاً في جسم تلك
الوالدة المسكينة فتمكنت منها وقبل ان تهدأ الحال ويعود الأمن كانت قد
غادرت دار الفناء تاركة زوجها والطفلتين . وكانت هذه الضربة الاخيرة
اعظم مما يقوى بطرس على احتماله فحنث ظهره واذهبت رشده ولبث
حيران يقرب نظره من جثة زوجته الباردة الى طفليته ويدرف دمعاً مدراراً
وهو لا يرى من يكلمه بكلمة تدرأ عن قلبه الكسير ما يلقاه من اليم الاحزان
ولم يدر بطرس باي وسيلة ينقل زوجته الى المدفن ومن يقوم له بهذا
العمل فكان ذلك يزيد في حزنه وهمه واخيراً ادخل جثة زوجته الى احدى
الغرف وتركها موسدة على السرير ثم اغلق الباب وخرج الى طفليته فاحضنها
وجعل يبكي ولم يكفكف عبرته حتى اخذت الطفلتان في البكاء ايضاً فدفعته
الغريزة الى استعمال ما يسكتها به وكان قد بقي في البيت قليل من اللبن
الذي كانتا ترضعان منه فوضعه في زجاجة وجعل يجرعهما منه شيئاً فشيئاً

الى ان ارتوتا ونامتا فعاد الى بكائه ومضت عليه ثلاثة ايام على هذه الحالة
لتي فيها اشد العذاب والبلاء. ولما لم يعد يحتمل البقاء وكانت الراححة الكريهة
تنبعث من غرفة الميتة عزم على مغادرة البيت فحمل الطفلتين وخرج واسعدته
الحظ ان رأى عربة الصحة تنقل بعض الجرحى الى المستشفى ويجرسها
ضابط من الفرسان فجثا امامه وطلب اليه ان ينقله معهم وادركت الشفقة
قلب الضابط فوقف العربية وادخل الرجل وابنتيه ولما بلغ الجميع المستشفى
وافت الراهبات يلاقين مرضاهم ومن جملة الطفلتان فاخذتهما الرئيسة مع
والدهما الى غرفة على حدة وبعد ان علمت قصته حزنت على مصابه ووعده
خيراً ثم ارسلت من استدلت على جثة الزوجة المائتة فدفنوها واقام بطرس
في المستشفى مع الطفلتين وكانت الراهبة تعني بهما اعتناء الام باولادها
ولم تمض مدة طويلة حتى هدأت الاحوال واستتب الامن فخرج
بطرس بابنتيه من المستشفى ولما كانت الراهبة عالة بحاله تقدمته ما تيسر
وزودته بكتاب توصية الى احد تجار الانكاز واوصته ان يأتيها بالابنتين كلما
امكنه لتراهما وتطمئن عن احوال معيشته فودعها وكله السنة ناطقة بشكرها
وكان قد اكرى له بيتاً صغيراً قبل خروجه من المستشفى عند امرأة ارملة
وعده ان تعني بابنتيه فانطلق اليه . واخذ من ليلته يسعي وراء الشغل
فقصد التاجر المذكور ووقدم اليه كتاب الراهبة فتماوله وقرأه ووعد بطرس
بالخير ثم عينه صرافاً في محله فاقام في خدمته . وكان بطرس لا يهمل الا
الاعتناء بابنتيه وقد رأى بهما سلوة وعزاة فكان لا يصدق ان يعود من
شغله فيحتضنها الى ان تناما . وكان لم ينس وعده الراهبة بزيارتها في كل

اسبوع فلما نشأت الابتان ادخلها بواسطتها الى مدرسة يومية حيث كانتا تتلقيان في النهار علومها المدرسية وفي الليل الفضائل الادبية عن والدهما وفي سنة ١٨٩٨ بلغت الابتان الخامسة عشرة من العمر وكانتا قد انتهتا دروسهما وكان بطرس قد حسنت احواله المالية فأخذ له بيتاً حسناً واقامت الفتاتان فيه ترتيباً وعادت الاصدقاء الى زيارتهم فجعل بطرس يعود شيئاً فشيئاً الى هنائه الماضي لولا كسر قلبه الذي يصعب جبره . اما الابتان فكاتتا يجتهدان في استعمال كل الوسائط لراحة والدهما ورفاهيته وكان اسم الواحدة على اسم والدتها سلمى واسم الثانية وداد

وكان من جملة المترددين على بيت بطرس نسيب له يقال له سليم . . . وهو فتى في الحادية والعشرين من عمره حسن الهيئة جميل الحصال كان قد مال قلبه الى سلمى فاحبها شديداً واكثر من زيارتها وقد وطن نفسه على الاقتران بها ولم تجهل سلمى ما اضره سليم فاستبشرت من ذلك بمستقبل سعيد غير ان الامر بقي ضميراً مكتوماً عند كلا الطرفين . اما وداد فانها منذرأت سليماً في اول مرة شعرت بانعطاف قلبها اليه واشتداد محبتها له الا انه كان معرضاً عنها لا يكاد يعيرها طرفه ولكن ذلك لم يكن ليضعف من حبها له بل كانت تزداد شغفاً به وميلاً اليه

ولما طال الامر على ذلك وهي لا ترى منه الا اعراضاً عنها وميلاً الى سلمى حدثتها نفسها ذات يوم ان تصرح له ببعض ما عندها فانتظرت قدومه في المساء ولما جاء جلس بقرب سلمى يحادثها وقد تفرغ لها بكليته ووقف عليها جميع حواسه فرأت وداد ان لا امل لها في محادثته تلك الليلة

فلبث حيناً تساورها الهموم ثم نهضت فاستأذنت معتذرةً بان بها صداعاً
اليماً يلجئها الى الرقاد ودخلت الى غرفتها حيث انطرحت على سريرها تفكر
فيما عسى ان يكون . ولما انتصف الليل انصرف الزائرون وذهب كلُّ الى
رقادهِ ودخلت سلمى الى غرفتها حيث تنام وداد ايضاً ولكنها عوض ان تنام
جلست الى مائدة في الغرفة وجعلت تفكر وهي في حالة قلقه . وبينما هي
كذلك دعا انتباهها حركةٌ في سرير شقيقتها فنظرت ولما رأتها لا تزال
مستيقظة قالت لها ألم تنامي بعد يا وداد . قالت لا ولا ارى انه يمكنني ذلك
الآن . قالت اذا كان كذلك فهل لك ان تسمعي مني حادثة سرية وتوازريني
برأيك ايتها الشقيقة . فاستوت وداد جالسة في سريرها وقالت هاتي ما
لديكِ . فدنت سلمى وجلست الى جانبها ثم اخذت في الكلام فقالت
لا اخني عنك يا شقيقتي ان سليماً كلما جاء يجالسني ويحادثني ولا
ادري أمن معاشرته اليومية ام من عوامل داخلية اراني قد ملت اليه و . . .
واحبيبه ولكن لم تكن محبتي له الا كمحبتني لك غير اني كنت لاحظ انه
يود مني غير ذلك مع انه لم يفه امامي بكلمة في هذا الشأن . ولا اطيل
الكلام على ما ذكرت بل اقول انه الآن بعد ان عزم على الانصراف وودع
الجميع اتى فودعني ووضع في يدي هذه التذكرة وقبل ان يمهلني لانظر ما
فيها اختفى فأتيت الى هنا وانا حيرى لا اعلم ماذا افعل أعطيت التذكرة
لوالدي ام اقرأها ام اردها اليه . فقالت وداد لا ارى من الحكمة ارجاعها
الى سليم بل يكون ضرباً من اساءة الادب ان تردّيها اليه قبل ان تعرفي
ما فيها واما اطلاع والدي عليها فاطن ايضاً انه لا يليق الآن لانه لو شاء

سليم ان يطلعه على ما فيها لما سلمها اليك سرّاً وعلى كل حال ارى ان تقضي هذا الغلاف فنطلع على ما تضمنه الرسالة ثم تفعل بحسبه . قالت سلمى اصبت ايها الشقيقة ومع ذلك فلا اراني اقوى على تلاوة هذه التذكرة فخذوها واقريها انت . فتناولت وداد التذكرة بيد مرتجفة وهي متشوقة ان تطلع على ما كتب محبوبها سليم وتخاف ان تجد في الرسالة ما يقطع حبل املها منه فتعوت غمّاً . غير انها تجلّدت وفضت الغلاف ثم اخذت تقرأ بصوت يرتجف وقلب يخفق فاذا في الرسالة ما يأتي

حبيتي الوحيدة ومالكة فؤادي سلمى

لم اعد استطيع الكتمان فان حبك قد اضنى جسدي واضعف جلدي وغادرنى ذا فكرٍ حائرٍ وجفنٍ ساهرٍ واحسب انه ان كان عندك عشر معشار ما عندي فهو كافٍ لان ترحمي شبابي الذابل وتنعشي حياتي المائتة بكلمة من فيك اعلم بها انك تحييني وانك لي . عذبني ان تمنني علي بهذه النعمة وانك تستولين على عرش قلبي الذي وقفته لملكك بل وقفت كل دقيقة من وجودي لك فهذا القلب لا يضرب الا لتقربك وهذا الدم لا يجري في عروقي الا على امل الحصول عليك . انتظر منك كلمة او اشارة واحدة تحقق املي وانا في موقف بين السعادة ان مننت والشقاء ان ابيت فانت مخيرة في الروح التي في يديك يا مالكة فؤاد محبك

سليم

وكانت سلمى منهمكة في استيعاب الكلام فلم تنبّه الى اضطراب وداد وتغير احوالها وبعد ان صمتت الاختان ساعة وكل منها تتبع سير افكارها قالت سلمى وما رأيك يا وداد . قالت ماذا تشعرين انت هل تحيين سليماً

وهل تودين ان يكون بهلاً لك . قالت سلمى انا لا افضل عليه احدًا بل الحق اقول انه قد تملك قلبي من زمان وانا اسيرة هواه . فصمتت وداد ايضاً وهي تفكر وكانت تحب اختها محبة لا مزيد عليها فصمتت ان تضحي نفسها في سبيل حفظها كما انها لفرط محبتها لسليم لم تشأ ان تنقص عليه امنيته فالتفتت الى اختها وقالت ارى الى تجييه الى طلبه وتوصيه ان يعلم والدي بالامر قبل كل شيء ثم ان يجري فيه على طريقة رسمية . قالت ذاك اليك فاجييه بما ترين فكتبت وداد ما يأتي

حضرة الخواجا سليم

اخذت تذكرتك وكنت اودُّ انها وصلتني من يد والدي فها انا اردُّها اليك لترسلها ثانيةً على يده واذ ذاك اجيبك خيراً ان شاء الله ثم دفعتها الى سلمى فوقت عليها وبعد ذلك اوت كلُّ من الاختين الى فراشها فنامت سلمى نوماً هنيئاً واما وداد فلم تغمض اجفانها وفي صدرها ما يمزقه وفي القلب ما يسيل دماءه

ولما كان اليوم الثاني مرَّ سليم امام بيت بطرس وكانت سلمى على نافذة غرفتها فجاها فرمت اليه رسالتها ودخلت . وكان بعد ذلك ان جاء سليم انى بطرس وخطب اليه ابنته سلمى فلم يمانع الاب بعد سؤال ابته لما كان يعلمه من صفات سليم وسائر احواله ولم يمض الكثير حتى اقترب سليم بسلمى وكان لهما فرح عظيم اشترك فيه الجميع حتى وداد فانها كانت تضمده جراجات قلبها بما تضمرة من الحب الصحيح لاختها وحببيها سليم ثم انه في اواسط سنة ١٨٩٩ ظهر في الاسكندرية مرض الطاعون

وخشي الجميع امتداده فأتخذت الحكومة كل الوسائل الفعالة للوقوف في طريقه ومنع انتشاره واجتهد رجال الصحة في تلافي اخطاره وتشديد الاوامر القاضية بحجز المصابين في المستشفى الاميري . وازداد حرص رجال الصحة وتيقظهم حتى تعدوا الى الحشونة والفظاظة فكانوا اذا بلغهم خبر مريض هجموا على بيته قبل تحقق مرضه فحملوه قسراً عن اهله وضربوا من اعترضهم وساقوه بالقوة الى المستشفى ولم يعلم أ كان ذلك منهم طمعاً في جزاء وعدتهم الحكومة به ام لمجرد التهويل وتعظيم الامر

وكان قد مضى على اقتران سليم بسلمى تسعة اشهر وقرب وقت ولادها فشعرت ذات يوم بدنو الساعة فذهبت الى سريرها طلباً للراحة . واتفق ان طبيباً من اطباء الصحة دخل البيت ولما رأى سلمى في سريرها زعم انها مطعوننة فامر اهل البيت بالتيقظ وعدم الاقتراب منها الى ان ينهي امرها الى مجلس الصحة وتنقل المريضة الى المستشفى . فلما سمع اهل البيت ذلك هلمت قلوبهم لعلمهم بما اشتهر عن رجال الصحة من الغلظة في معاملة المرضى وكبر الامر على سلمى وخشيت ان هي نُقلت الى المستشفى في تلك الحالة ان يصيبها سوء . ولما خرج الطبيب من البيت جعل الجميع يبكون وقد ايقنوا بحلول مصاب كبير ولم يعلموا باي طريقة يتخلصون من تلك البلية . ولما رأت وداد ما احاق باختها وصرها من النغم والخوف قالت علي انقاذكما من هذه الورطة . انكم تعلمون مشابهي لسلمى فسأناهم محلها في سريرها حتى اذا جاء رجال الصحة يأخذونني انا عوضاً عنها وعند الفحص يجدون اني صحيحة الجسم فلا يتأخرون عن ارجاعي اليكم وبذا ينتهي الامر . فاستحسن الجميع

رأيها ونهضت سلمى من سريرها واضطجعت وداد في مكانها . وبعد نحو ساعة قرع الباب قرعاً عنيفاً وارتفعت الضوضاء من الخارج واذا بالطبيب داخل ورفقته اربعة رجال كأنهم زبانية الجحيم فاندفعوا الى غرفة الفتاة وهم أهل البيت ان يعترضوا عليهم فاسكتوهم بالشتائم والكلام القبيح وهجموا على السرير فاخطفوا الفتاة وساروا بها الى العربة فاقلعوها وذهبوا . ولما بلغت المستشفى نزعوا عنها ثيابها والقوها في سرير كبقية المرضى وارسلوا لها العلاج لتشربه فتمنعت قائلة اني صحيحة الجسم لا اشكو الماء فافصوني . فقال الطبيب كلاً فانك مصابة بالطاعون فلا بد من تجرعك الدواء . وخافت وداد العاقبة فعزمت ان تصرح بما فعلت ولكنها خافت على شقيقتها فسكتت وكانت كلما صرحت لهم بانها صحيحة الجسم قام الطبيب يوبخها ويعنفها ويجبرها على اخذ الدواء . وكانت وداد في اشد الخوف والضيق ولا سيما بعد انقضاء اليوم الاول والثاني وكانت لا تذوق قوتاً ولا يسمح لها بغير العلاج . ولما جاء اليوم الثالث سألت الطبيب عن يوم خروجها فقال ان بقيت حية فلا تخرجين قبل شهر . فلما تحققت ما وصلت اليه وادركت الهوة العميقة التي القت بنفسها اليها خارت قواها وايقنت بدنو الاجل . وكان قد اثر فيها الخوف وعدم القوت فضعفت صحتها وفقدت قوتها واخذت في التأخر يوماً عن يوم ولما شعرت باقتراب الساعة الاخيرة طلبت ورقاً فكتبت الى صهرها سليم ماياتي

حبيبي سليم

كنت اود بل كنت اشتهي الموت قبل الآن ولكن الله ابقاني الى

هذا الوقت لاذهب فدنى عن شقيقتي سلمى ولا اقطع جبل سرورك ولكن لا بد قبل موتي من اطلاعك على امر طالما عذبني كتمانهُ . احببتك يا سليم محبة الروح للروح وعبدتك في ليلي ونهاري فانك سلبت فؤادي واسرني ولم تطلق اسري يا قاسي . بل مالي ولهذا الكلام المؤثر اني لم اكنم خبر حبي الا رغبةً في تمام سعادتك وسعادة شقيقتي فليهنكما الله وانما اعترفت لك به الآن لأخفف بعض ما يثقل على قلبي غير اني اناشدك الله ان لا تطلع سلمى على شيء منه . والآن قد اقتربت النهاية فاستريح في القبر الذي تدفني اليه ايدي هؤلاء الاطباء الظلمة فهم ليسوا بمجلس صحة وانما هم قضاة الموت . الوداع ايها الحبيب . عزّ والدي الشيخ وشقيقتي واذا عرقتم قبوري فزُرْ ضريحي وان شئت ان تكافئ محبتي فامطر على ضريحي دمةً واحدة فيها تنطق نار الحب المتأججة في صدري واستودعك الله محبتك الشقية

وداد

ولما جاء الطيب في اليوم الثاني رأى للحال على وجهها علامة الموت فاستحلفته ان يوصل كتابها الى سليم ولما وعدّها وحلف لها ان يقضي الامر تبسمت ثم شهقت وفاضت روحها

ولما وصل الكتاب الى يد سليم اسرع الى المستشفى واستخبر عن وداد فوجد انها قد دُفنت منذ الصباح فبلغ خبر الوفاة الى زوجته والدها فندبها الاب وبكتها الاخت ولم يزل كتابها في يد سليم يطالعه كل يوم ويزور ضريحها حيناً بعد حين وهو يترحم على شهيدة الحب والوفاء